خفايا و أسرار

على جبل الشريف!

السلطان عبد الحميد

يتجول فى منقبار !

كيف كان اللواءات يعاملوننا

وكيف كانوا يعاملون الإنجليز ؟!

يظن كثير من الناس ان هذه الثورة ، دبر لها تشكيل من الضباط اثر حادث معين جمعهم على هدف وتدبير ..

وفي أجواء الظنون ، تجد الاشاعات كثيرا من نقط الارتكاز ..

تجد النقطة الاولى في حرب فلسطين .. بين اشلاء الضحايا وخيانات فاروق وعصابته ..

وتجد النقطة الثانية ، في تحقيقات الاسلحة الفاسدة وتدخل الملك لحفظ الدنوي بالنسبة لحاشيته ..

وتجد النقطة الثالثة ، في تصرفات قيادة الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا انفسهم في أحذية فاروق

ولا يذهب خيال الناس الى ابعد من هذا مطلقا ..

ولقد كانت كل هذه الاحداث فعلا ، من الاحداث التي شغلت اهتمام الضباط الاحرار ، واستحثت خطاهم ولكن نشأة الثورة ، والتمهيد لها ، لم يستمد من حادث من الاحداث ..

فقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية ، ونما التمهيد لها نموا طبيعيا ، لانها كانت في كل مراحلها ، تفاعلا طبيعيا قويا ، بين ضمير جيش مصر ، وضمير شعب مصر ..

إلى الأمام

ضباط صغار

١٩٣٨ ...

في معقيد ...

في هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصري ، بعناصره العريقة نملا كيانه وتسيطر عليه ..

وفي الشتاء .. حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف ، فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة ويتصرون بها على عواء الرياح ...

هناك حول نار في معسكر المناورات بشباب الشريف ، كنا نقضي طرفا من كل ليلة ... أصدقاء ، كلهم ضباط الصف ، ضباط المناصب ، كبار الآمال وافرو الشباب ...

ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان ... نحترق طول النهار في مناورات طويلة ، ونعود الى الخيام آخر النهار نضيء النار في الجبل . فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب ...!

وكانت في القلوب نار ... نار تتضيء لان وقودها يتجدد في كل لحظة من احساساتنا الشابة المرهفة ... ومما يقع تحت أعيننا كل يوم من الصباح الى المساء ...

كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الاحداث ...

فقد كنا ضباط صغارا ...

وكان لنا قواد ..

وكان هناك ايضا .. انجليز ...!

وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم الا ادلالنا .. وايثار الانحناء امام الانجليز ...

وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق .. ونسخط .. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم ...

وماذا يستطيع ملازم ثان ان يفعل في داخل النظام العسكري ، وقد تلك الاوضاع الرهيبة الا ان يسكت . ويكظم الغيظ ، ويدفن النار في حشاه ...

هكذا كانت ايامنا ...

ولكن لياليا كانت تختلف اختلافا كبيرا . ففي جو من الصداقة والالفة ، كنا نجلس فنمرح . ونذيب في هذا المرح ، شقاء اليوم الطوال .. شقاء الكبد ، وشقاء النفس . وشقاء الغربة الى جبل بعيد ...

صديق ... واصدقاء

ولا ندري لماذا كان يتوسطنا دائما شاب رقيق وديع ، عامر النفس بالصفاء ،

لم يكن يكبرنا سنا ، ولا رتبة .. فقد كنا جميعا بناء « دفعة » !

ولكنه كان الملتقى الذى جمع صداقتنا جميعا .. كنا نسرح ، فنضحك عاليا ، ونسخر من كل شيء ... لا ترحم السنتنا أحدا ... واحيانا نغني ..

وكان يصنع كل ما نصنع ، ولكنه كان مع ذلك أيضا ، يفكر ... يفكر بقلبه ، ويفكر بوعيه .. ولا نكاد ننطلق في المرح ، حتى نجد موضوعا هادئا ... يثيره بيننا جمال عبد الناصر ....

وربما كان موضوعا شخصيا ، وربما كان موضوعا عاما .. وربما كان ذكريات عابرة نمر به من حياته ، ولا يلبث أن يستنبط منها فكرة أو رأيا ، ويثير بيننا مناقشة طويلة ... هادئة ....

وكان جمال يطوى نفسه على كثير من الآلام الشخصية .. آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير ، فأثرت وفاتها في حياته تأثيرا كبيرا .. لعل من أخطر عناصره شدة الحياء التي طبعت حياته حتى اليوم ...

وكان الى حياته وعدوله ، يمثل الشخصية الكاملة لابناء الصعيد ... فهو يكبر الحياة بمثله « الصعيدية » الخاصة ، فتجده وديعا رقيقا ملء الصدر بالحنين ، اذا لمست نفسه لمسة عاطفية قد لاتحرك أحدا من الناس .. ولكنه ينقلب أسدا عصورا ، في اللحظة التي يشعر فيها بأن أحدا ، فكر مجرد تفكير في الاعتداء عليه ..

كان هذا الصديق بينا ، صورة حلوة للاخاء ، والصداقة والايثار ، والهدوء والكرامة ... فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعا فكأنه في سكونه وهدوئه ومتابعة الخاص ، معنى مجسم حي ، لكل المعاني والدلالات التي يمكن استخلاصها ، من تفاعل العواطف الانسانية المتضاربة ، في النفس .. تسمت عليه الحياة ...

وهكذا .. وحول هذا الرجل التف مجموعة من الضباط الصغار الاصدقاء .. لم يكن احد يدرى انها ستكون نواة لمجموعة اكبر واكبر ، وان اجتماعهم في تلك الشباب البعيد لن يكون مجرد صدفة تمر . وتنسى من بعدها بل الاصدقاء ، وانما ستكون البذرة الحقيقي لجهاد عنيف ومحن كثيرة وعمل خطير .

السلطان عبد الحميد

وان كنا قد اخذنا حياة قوادنا الكبار في ذلك الوقت بالسخرية العنيفة نطلقها في ساعات المرح فقد جا اليوم الذى لم تعد فيه السخرية تغني عن آلامنا شيئا ..

فقد القى علينا القدر بقائد جديد للمنطقة لم يكد يصل اليها ، حتى شعرنا بأن الذى وصل غاز من غزاة الترك !

كان يريد ان يرى نفسه بيننا مثلما يرى السلطان عبد الحميد نفسه بين عالم اسطنبول الآمر الناهي النفاذ الذى لايناقش ..

واصبحت الحياة كريهة منذ اللحظة التي وصل فيها اللواء محمود سيف الى منقباد .

كان هذا هو اسمه .. ولكننا كنا نسميه السلطان عبد الحميد .. لانه كان يفرض علينا تقاليد السلاطين.

وبدأنا نيأس من خدمة الجيش . واعد بعضنا استقالته فعلا من هذا فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به في تلك الفترة السحيقة من حياتنا في منقباد ..

واشتدت الصلات بين كل منا ، وبين المجموعة الكاملة .. حتى اصبح كل منا يفكر بعقلية الكل واصبح من حق كل منا ان يتكلم باسم الجماعة واصبحت هذه الجماعة يوما بعد يوم قيدا جديدا لتصرفاتنا . لان كل عمل يأتيه فرد منها سينسب الى الجماعة شاءت أم لم تشأ .. علمت بالامر ام لم تعلم ..

وانى لاذكر الآن تلك الايام والليالى ، اذكر مرحنا وآلامنا ، وايام صداقتنا الجميلة الاولى .. والسلطان عبد الحميد الذى اراد ان يذل رقابنا . ذل رقبته لصغار الانجليز ، وراح يجول فى صورة ضرسة مضحكه مبكية هنا فى منطقة منقباد .

انهم الانجليز اصل بلائنا كله ..

وكانت مفاتح تفكير طويل .. لم يلبث ان اصبح خطر عملية متابعة .

كنا جميعا نعلم ان الانجليز هم اصل بلائنا كله ... وكنا جميعا نكره الانجليز .. ولكن هذه الكلمة قالها جمال . وكانه يحدد لنا رسالة كبرى ، لاينبغى ان ينشغل عنها احد

وشهدت تباب الشريف ، والنار الموقدة عليها عهدا مقدسا ... ربط مجموعة صغيرة من الشبان الصغار . لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدد .. ولكن ربطهم .. بفكرة الحياة

خلايا ...

وبدأنا نجمع حولنا انصارا لفكرة الحياة بدأ كل منا يختبر عددا من الضباط الاخرين .. ويتكون فى محيطه خلية صغيرة يسير فيها هذه الفكرة ، ويرى مدى استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل ..

وبدأنا نخطو الخطوة فنحاسب لها حسابا ونلقى الكلمة فنفكر قبل القائها مرتين ..

بدأنا نزيح من اعماقنا زعامة الشباب ، ونحل فيها الشعور بالمسئولية والاقتصاد فى الامل

لقد قتل جمال فينا المرح ، وكنا فى شرخ الشباب !!

وجاء الدرس الاول الذى اقذاه بعيدا لتلك فاصبح درس حياتنا ..

الكل والواحد

فقد مرت ايام قليلة .. كنا فيها لانزال فى فترة تكويننا الاول ..

واذا بالشىء الذى نسيناه جميعا يقع ... وكنا خليقين بتوقعه ..

فان ضابط الجيش لايستقر فى مكان واحد طويلا .. وان هى الا لحظة خاطفة ، حتى كنا

قد تفرقنا شعاعا .. واحد في الاسكندرية ، والثاني في طنطا ، والثالث في القاهرة .. والرابع في مرسى مطروح ..

وكانت الحرب اذ ذاك قد بدأت ، والاعصاب توترت ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندى عالقة بزهرة او تذوب في شعاع الصباح

رأينا حلمنا الكبير يذوب

وافترقنا ..

ولكن الحلم لم يذب .. والفرقة لم تستطع ان تكون حاجزا بين هذه المجموعة في اقسى الظروف التي حلت بها

وفهمنا مع الايام هذا السر الكبير وهو أن الصداقة القوية عندما تقوم على نقاء وطهر وعندما تتركز أيضا حول فكرة فانها قادرة على الحياة مهما فرقت الحياة بين الاصدقاء ، بل هي أكثر من ذلك تستطيع ، وحدها صنع المعجزات

والذي وقع بعد تلك الايام ، هو الاثر القوي لهذه الصداقة النقية التي ربطتنا .. فقد فرقت بيننا الظروف كثيرا ، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيرا ..

وكنا لا نفترق لافتراقنا الفكرة ولا عهد الجماعة ، وكل ماخشيناه ان احدنا كان يجد الفرصة للعمل ، ليعمل ... يعمل مستقلا بارادته في ظاهر الامر ، ولكنه في حقيقته يكون ممثلا بارادة الجماعة المتمثلة في فكرتها الكبرى ... وعهدها المقدس .

وقد تحمس من بيننا لسماء في كثير من الاوقات كما اختص اسم جمال عبد الناصر بعض الوقت بين ديسمبر ١٩٣٩ ويناير ١٩٤٢ .

اذ كان في هذه الفترة قد نقل الى السودان .

ولكن الحلم لم يذب في ميدان العمل .. كل يعمل .. يعمل بارادته ، ولكن باسم هذه الجماعة ... بارادتها الاصيلة ، ويعمل بارادته ولكنه يرجع الى من يستطيع أن يرجع اليه من حين لحين .. في كل فرصة تتاح له ..

وفي هذه الايام تغير خريطة وزارة فقد تغيرت خريطة ... حدث الانقلاب عام ١٩٤١ .. وفي ميدانه ميدان العمل في مرسى مطروح

كان يعمل معنا .. مع أول من يعمل من عمل هذه الجماعة .. جماعة الاخوان ..